﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ۝١ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝٢ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ ۝٣ إِنَّ سَعۡيَكُمۡ لَشَتَّىٰ ۝٤﴾ [الليل: 1 - 4]

❁ مناسبةُ مطلعِ سورةِ اللَّيل لآخِرِ سورة الشَّمس:

اختلافُ النّاس في تحصيل الخير والشَّرِّ فِطرةٌ بشرية

لمّا بيَّنَ تعالى في سورة الشَّمس حالَ مَن زكَّى نفسَه، وحالَ مَن دسّاها، وأوضحَ في آخِرِها من مخالفةِ ثمودَ لرسولِهم ما أهلكَهُم، فعُلم أنَّ النّاس مختلفون في السَّعي في تحصيل الخير والشَّرِّ، بعد أن أثبتَ أنَّه هو الَّذي تصرَّف في النُّفوس بالفجور والتَّقوى؛ أقسَمَ على ذلك أوَّلَ هذه السّورة بما يدلُّ على عجائب صُنعِه في ضرِّه ونفعِه، وهو اللَّيل والنَّهار؛ تنبيهًا على تمام قُدرته في أنَّه الفاعلُ بالاختيار، يَحولُ بين المَرءِ وقلبه؛ حتَّى يحملَهُ على التَّوصُّل إلى مُراده[1].

ومنها أنَّه سبحانه ذكرَ في نهاية سورة الشَّمس ﴿فَدَمۡدَمَ عَلَيۡهِمۡ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمۡ فَسَوَّىٰهَا ۝١٤ وَلَا يَخَافُ عُقۡبَٰهَا ۝١٥﴾ [الشمس: 14 - 15]، وفيها تصويرٌ للعذاب الذي حلَّ على قومِ ثمودَ بأن سوَّى عليهم الأرضَ ودسَّهم فيها؛ لأنهم دسّوا أنفُسَهم في ظُلمة الكفر جزاءً وفاقًا، وجاءت سورةُ اللَّيلِ مبدوءَةً بالقسَم به لتؤكِّدَ على كمالِ قُدرته، فالذي فعلَ بهم هذا ودسَّهم تحت الأرض هو الذي خلقَ اللَّيلَ ليُغطّيَ الكونَ كلَّهُ ويَستُرَه.

❁ شَرْحُ المُفْرَدات:

1) ﴿يَغۡشَىٰ﴾: (غشي) أصلٌ يدلُّ على تغطية شيءٍ بشيء[2]، ومن ذلك يُقال: غشَّيت الشَّيءَ تغشيةً إذا غطَّيته، والغِشاء: الغِطاء[3]،

(1) البقاعي، نظم الدرر: 22/ 85 - 86.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (غشي).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (غشي).

والغاشية: القيامة؛ لأنَّها تغشَى الخلقَ - أي: تُغطّيهم وتُصيبهم - بأفزاعها وأهوالها[1]، ويقال: غشيَتْه غاشيةٌ، أي: أصابته داهية[2]، وغاشيةُ السَّيف والرَّحل: غِطاؤه[3]، ويقال: غَشيَ اللَّيلُ، وأغشَى، أي: أظلم[4]. والمراد بـ ﴿يَغۡشَىٰ﴾ هنا: يُغطّي النَّهارَ بظُلمَته[5].

2) ﴿تَجَلَّىٰ﴾: (جلو) أصلٌ يدلُّ على انكشافِ الشَّيء وبُروزِه، ومن ذلك يُقال: تجلَّى الشَّيءُ، إذا انكشف[6]، والجليُّ: ضدُّ الخَفيِّ[7]، وأجليتُ القومَ عن منازلهم فجلَوا عنها، أي: أبرزتُهم عنها، قال تعالى: ﴿وَلَوۡلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ﴾ [الحشر: 3][8]، والتَّجلّي قد يكون بالذّات نحو: ﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ﴾، وقد يكون بالأمر والفعل، نحو: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ﴾ [الأعراف: 143][9]. والمراد بـ ﴿تَجَلَّىٰ﴾: انكشفَ ووضحَ وظهَرَ، وبانَ بضوئِه عن ظُلمةِ اللَّيل[10].

3) ﴿سَعۡيَكُمۡ﴾: سَعَى الرَّجلُ يَسْعَى سَعْيًا، إذا عَمِلَ وكَسَبَ، وكلُّ مَنْ ولِيَ شيئًا على قومٍ فهو ساعٍ عليهم، وأكثرُ ما يُقالُ ذلكَ في وُلاةِ الصَّدَقةِ[11]، والسَّعْيُ: المَشْيُ السَّريعُ، وهو دونَ العَدْوِ، ويُستعمَلُ للجِدِّ في الأمرِ، خيرًا كانَ أو شَرًّا؛ قالَ تعالى: ﴿وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَآۚ﴾ [البقرة: 114]، وقالَ: ﴿إِنَّ سَعۡيَكُمۡ لَشَتَّىٰ﴾[12]، والمُساعاةُ بالفُجورِ، والمَسْعاةُ بطلبِ المَكْرُمةِ[13]، ويقالُ: مَضَى سَعْوٌ مِنَ اللَّيلِ، أي: قِطَعٌ منهُ، والسَّعْوةُ: الشَّمعةُ[14]. والمراد بالسَّعي هنا: العمل[15].

4) ﴿لَشَتَّىٰ﴾: (شتت) أصلٌ يدلُّ على تفرُّقِ أفراد الشَّيء بمسافةٍ واضحةٍ بين كلٍّ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (غشي).
(2) الزمخشري، أساس البلاغة: (غشي).
(3) الخليل، العين: (غشي).
(4) الفيومي، المصباح المنير: (غشي).
(5) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 24/ 465، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 20/ 80.
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (جلو).
(7) الرازي، مختار الصحاح: (جلو).
(8) الزبيدي، تاج العروس: (جلو).
(9) الراغب، المفردات: (جلو).
(10) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 20/ 80.
(11) الجوهري، الصحاح: (سعي).
(12) الراغب، المفردات: (سعي).
(13) السمين، عمدة الحفاظ: (سعي).
(14) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سعي)، والزبيدي، تاج العروس: (سعي).
(15) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 24/ 467، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 20/ 82.

منها والآخر[1]، ومن ذلك يقال: أمرٌ شَتٌّ، أي: متفرِّق، وشتَّ الأمرُ شتًّا وشتاتًا: تفرَّق، واستشتَّ مثله، وكذلك التَّشتُّت[2]، ويقال: شتَّته تشتيتًا[3]، وأشتَّ بي قومي: فرَّقوا أمري، وشتَّ بقلبي كذا وكذا، أي: فرَّقه[4]، والشَّتيت: المفرَّق[5]. ومعنى ﴿لَشَتَّىٰ﴾: لمختلف[6].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

النّاسُ مذاهبُ مختلفةٌ في الخير والشَّرِّ

افتتحَ اللّه تعالى هذه السّورة مُقسِمًا باللَّيلِ إذا غشَّى النَّهارَ بظُلمَته، فأذهبَ ضوءَهُ، والنَّهارِ إذا أضاءَ فأنارَ، وظهرَ للأبصار، والَّذي خلقَ الذَّكرَ والأنثى بقُدرته، إنَّ عمَلكُم لَمُختلفٌ أيُّها النّاس؛ لأنَّ منكم الكافرَ برَبِّه، والعاصيَ لهُ في أمرِهِ ونَهيِه، والمُؤمنَ به، والمطيعَ له في أمرِهِ ونَهيِه[7].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ افتتاح السّورة بالقسَم:

مساعي النّاسِ مختلفةٌ في الخير والشَّرّ

افتُتحت السّورة بالقسَم؛ لتأكيد الخبر؛ لأنَّ القسَم طريقٌ من طُرُقِ توكيدِ الكلام وإبراز معانيه لإزالة شكِّ الشّاكّينَ ودفعِ إنكارِ المُنكِرين، وسورةُ اللَّيلِ مكّيَّة، ومن مَقاصِدِها حَثُّ المشركين على الإيمانِ وتركِ الكفرِ والعصيان، وهم مُنكِرون، فأُكِّدَ لهم الكلام[8]، والمقصودُ بالتَّأكيد هو ما في السّورة من بيانِ اختلاف مساعي النّاس في الخير والشَّرِّ، وبيانِ عاقبة أهلِ الخير، وعاقبة أهل الشَّرِّ؛ ليُرغَبَ في طريق الخير، ويُحذَرَ من طريق الشَّرِّ والفساد[9].

(1) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (شتت).
(2) الجوهري، الصحاح: (شتت).
(3) الزبيدي، تاج العروس: (شتت).
(4) الأزهري، تهذيب اللغة: (شتت).
(5) الزبيدي، تاج العروس: (شتت).
(6) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 24/ 467، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 20/ 82.
(7) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 24/ 465 - 467.
(8) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 378.
(9) البقاعي، نظم الدرر: 22/ 85 - 86.

بلاغةُ الإيجاز في أسلوب القسَم في السّورة:

التَّخفيفُ والإيجازُ الَّذي هو أنسَبُ بتَناسُبِ الفواصل

في الأقسام المذكورة في السّورة إيجاز، وذلك باختيار الواو؛ لأنَّها يُطَّرحُ معها إبرازُ الفعل اطِّراحًا كلّيًّا، فكان لها شأنٌ خِلافُ شأن الباء؛ حيث أُبرِزَ معها الفعلُ وأُضمِرَ، فكانت الواوُ قائمةً مقامَ الفِعل والباءِ سادَّةً مَسَدَّهما معًا، والتَّقدير: (أُقسِمُ واللَّيلِ إذا يَغشَى ...)، وغرَضُ الحذفِ هو التَّخفيفُ والإيجازُ الَّذي هو أنسَبُ بتَناسُبِ الفواصل من حيث القِصَر غالبًا.

نكتةُ القسَم باللَّيل:

اللَّيلُ آيةٌ دالَّةٌ على حِكمَةِ الله تعالى وقُدرَته

أقسَمَ الله تعالى باللَّيلِ في قَولِه ﷻ: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ﴾ لتشريفِه وتعظيمِه؛ فهو الَّذي يَأوي فيه كلُّ حيوانٍ إلى مَأواه، ويسكُنُ الخَلقُ فيه عن الاضطراب، ويَغشاهُمُ النَّومُ الَّذي جعلَهُ الله راحةً لأبدانِهم، وغِذاءً لأرواحهم[1]، وهو محلُّ الأسرار[2]، وفي كلِّ ذلك تنبيهٌ على الاعتبار به في الاستدلال على حِكمةِ نظامِ الله في هذا الكون وبديعِ قُدرته[3].

دلالةُ تعريف (اللَّيل):

اللَّيلُ المَعهود محلٌّ للعِظَة والاعتبار

تعريف (اللَّيل) في قوله ﷻ: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ﴾ للجنس المستغرِقِ لجميعِ أفراده، فكلُّ ليلٍ محلٌّ للعِظَة والعِبرة، ودليلٌ على قُدرةِ الخالقِ جلَّ ذِكرُه.

ويحتملُ أن يكون للجنس الصّادق على جميع أجزائه؛ فالمُقسَمُ به اللَّيلُ كلُّه لا بعضُه[4]؛ لأنَّ اللَّيل يشمَل نصفَ الكرةِ الأرضيَّة في مقابلة النَّهار، وكذلك النَّهار في مقابلة اللَّيل، والمُراد هنا القسَمُ باللَّيل في كلِّ مراحله.

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 181.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 22/ 88.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 378.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 15/ 365 - 366.

بلاغةُ التَّعبير بالظَّرفيَّةِ ﴿إِذَا﴾ مع الغشيان والتَّجلّي:

إبرازُ كمالِ قُدرتِهِ سبحانه في الجَمعِ بينهما

﴿إِذَا﴾ في قوله تعالى: ﴿إِذَا يَغْشَىٰ﴾، وقوله: ﴿إِذَا تَجَلَّىٰ﴾؛ في محلِّ نصبٍ على الظَّرفية، متعلِّقة بكونٍ هو حالٌ من اللَّيل، ومن النَّهار، فهو ظرف مستقرٌّ، أي: مُقسَمًا بكلٍّ واحدٍ منهما في الحالة الدّالَّة على أعظمِ أحوالِه، وأشدِّها دلالةً على عظيم صُنعِ الله تعالى[1].

نكتةُ تقييدِ القسَم باللَّيل بـ ﴿إِذَا يَغْشَىٰ﴾:

صورةُ غشَيانِ اللَّيل عظيمةُ الدَّلائل

قُيِّد القسَمُ باللَّيل بالغشَيان في قوله: ﴿إِذَا يَغْشَىٰ﴾ مع ما في اللَّيل من آياتٍ عِظام؛ لِما في حالة غشَيانِه من العجَبِ الدّاعي إلى الاتِّعاظِ والاعتبار، فهو يَغشى الجانبَ الَّذي يَغشاه من الأرض، ويَغشى ما فيه من الموجودات، فتعُمُّها ظُلمَتُه، فلا تبدو للنّاظرين؛ لأنَّ ذلك أقوى أحوالِه[2]. وفي ذلك دلالةٌ على جلالةِ مُبدِعه، وعظيمِ ماحقِهِ ومُطلِعه[3].

سرُّ التَّعبير بالغشَيان دون التَّغطية:

تغطيةُ اللَّيل للشَّمس تُذهِبُ ضوءَها عند الغياب

عُبِّر بالغشَيان دونَ التَّغطية في قوله جلَّ من قائل: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ﴾؛ لأنَّ الغشَيان أخَصُّ من التَّغطية، فهو تغطيةٌ مُبالَغٌ فيها، ولذلك كانت الغاشيةُ من أسماءِ يوم القيامة[4]، فيُفيد الكلامُ المبالغةَ في بيانِ تغطية اللَّيل للشَّمس بحيث يُذهِبُ ضوءَها عند الغياب، أو تغطية اللَّيل للنَّهار، أو لكلِّ شيء.

بلاغةُ التَّعبير بالمضارع في ﴿يَغْشَىٰ﴾ والماضي في ﴿تَجَلَّىٰ﴾:

غشَيانُ اللَّيل تدريجيٌّ

عُبِّر بالمضارع بالفعل ﴿يَغْشَىٰ﴾ في قوله ﷻ: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ﴾؛ للدَّلالة على عُروضِ الظُّلمة لأصل النّور الَّذي هو أكمَلُ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 379.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 378.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 22/ 86 - 87.
(4) زيدان، الفروق، ص: 101.

مظاهرِ الوجود؛ لأنَّ اللَّيلَ غشَيانُه تدريجيٌّ شيئًا فشيئًا، وهذا يحتاجُ إلى زمنٍ يمتدُّ فيه؛ لذلك كان التَّعبيرُ بالمُضارع، أمّا تجلّي النَّهار فيكون دفعةً واحدةً بمجرَّدِ طُلوعِ الشَّمس، لذا عُبِّرَ عنه بالماضي[1]. وفي المضارع أيضًا إشارةٌ إلى أنَّ غشَيانَ اللَّيلِ يكونُ على التَّدريجِ قليلًا قليلًا[2].

وممّا يُذكر في دلالة التَّعبير بالمضارع ﴿يَغۡشَىٰ﴾ أنَّ المرادَ باللَّيل: الظُّلمةُ الحادثةُ بعد النَّهار؛ لأنَّها أدلُّ على القدرة، لا الظُّلمة الأصليَّة، والظُّلمةُ الحادثةُ مستقبلةٌ بالنِّسبة إلى تجلّي النَّهار، فلذا اختيرَ لفظُ المستقبل؛ تنبيهًا على ذلك، ولو عُبِّر بالماضي لم يُفهَمْ ذلك، بل فُهِمَ اللَّيل المتقدِّم على النَّهار في أوَّل الخِلْقة[3].

سرُّ عدم ذِكرِ مفعولٍ ﴿يَغۡشَىٰ﴾:

في قوله ﷻ: ﴿إِذَا يَغۡشَىٰ﴾ إيجازٌ بحذفِ المفعول؛ لاحتماله لكلِّ المعاني المُرادة، والتَّقدير: واللَّيلِ إذا يَغشَى الشَّمسَ، من قوله: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰهَا ۝٤﴾ [الشمس: 4]، أو: واللَّيلِ إذا يَغشَى النَّهارَ، من قوله: ﴿يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَۚ﴾ [الرعد: 3]، أو: واللَّيل يَغشى كلَّ شيءٍ يواريه بظلامِه، من قوله: ﴿إِذَا وَقَبَ ۝٣﴾ [الفلق: 3][4]، أو: واللَّيل يَغشَى الأرضَ، أو الخلائق[5].

إفادةُ العُمومِ في سَعَةِ ما يَغشاهُ اللَّيل

ويحتملُ أن يكون حذفُ المفعول؛ لتنزيلِ الفِعل منزلة اللّازم؛ لأنَّ العِبرة بغشَيانه كلَّ ما تغشاه ظُلمتُه[6].

بلاغةُ إسنادِ التَّغشية إلى اللَّيل:

إذا كان مفعولُ ﴿يَغۡشَىٰ﴾ هو الشَّمس، فالمعنى أنَّ اللَّيل يُغطّي

تغطيةُ اللَّيل مكانَ ضوءِ الشَّمس

(1) القاسمي، محاسن التأويل: 9/ 484.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 22/ 86 - 87.
(3) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 20/ 303.
(4) الزمخشري، الكشاف: 4/ 761، والنسفي، مدارك التنزيل: 3/ 650.
(5) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 20/ 80.
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 379.

مكانَ ضوءِ الشَّمس، وهو جوُّ الهواء، فجُعِلَ مُغطّيًا نفسَ الشَّمسِ مجازًا للمبالغة[1].

وممّا يُذكر في بلاغةِ إسنادِ التَّغشيةِ إلى اللَّيل: الإشارةُ إلى أنَّ ظُلمةَ اللَّيلِ كانت غالبةً لضَوءِ النَّهار، وأنَّ النَّهارَ يَعقُبُها ﴿يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ﴾ [فاطر: 13].

سرُّ اختيارِ القسَمِ باللَّيلِ والنَّهار:

آثرَ التَّعبيرُ القرآنيُّ القسَمَ باللَّيلِ والنَّهار في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ۝ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ﴾؛ لتناسُبِهما معَ غرَضِ السّورةِ، من بَيانِ البَونِ الشّاسعِ بينَ حالِ المؤمنينَ والكافرين في الدُّنيا والآخرة.

وفي القَسَمِ بهما إشارةٌ كَونيَّةٌ إلى اختلافِ الأحوالِ للبَشَر؛ فاللَّيلُ سُكونٌ، والنَّهارُ حَرَكةٌ، وحالُ الإنسانِ بينَ الحَرَكةِ والسُّكون.

وفي القَسَمِ بهما تحذيرٌ لِلإنسانِ مِنَ الغَفلة؛ لأنَّهُ يَعيشُ فيهما، ويقتربانِ به إلى نهايةِ الأجَل؛ فكما يَأخُذُ اللَّيلُ مِنَ النَّهارِ، يَأخُذُ الزَّمَنُ من عُمرِ الإنسان.

ولِلدَّلالةِ على عَظَمَتِهما لِما فيهما من المَنافعِ ولتعاقُبِهما الَّذي هو مِن خَصائِصِ قُدرَتِهِ سُبحانَه وتَفَرُّدِهِ بها، يَدُلُّ على ذلك ما ورَدَ في سورةِ القَصَص. [الآيات: 71 - 72] ولتعلُّقِ العباداتِ بهما.

سرُّ تقديمِ القسَمِ باللَّيلِ على القسَمِ بالنَّهار:

كثرةُ أهلِ الكُفرِ وقلَّةُ أهلِ الإيمانِ زمنَ نزولِ السّورة

ابتُدِئَ في هذه السّورة بذِكرِ اللَّيلِ ثمَّ ذِكرِ النَّهار عكسَ ما في سورةِ الشَّمس؛ لأنَّ هذه السّورةَ نزلت قبلَ سورةِ الشَّمسِ بمُدَّة، وهي سادسةُ السّوَر، وأيّامئذٍ كان الكفرُ مُخيِّمًا على النّاسِ إلّا نفرًا قليلًا، وكانَ الإسلامُ قد أخَذَ في التَّجلّي، فناسبَ تلك الحالةَ بالإشارةِ إلى

(1) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 20/ 302.

تمثيلِها بحالةِ اللَّيل حين يَعقُبُهُ ظُهورُ النَّهار، ويتَّضِحُ هذا في جوابِ القسَم بقوله: ﴿إِنَّ سَعۡيَكُمۡ لَشَتَّىٰ﴾ إلى قوله: ﴿إِذَا تَرَدَّىٰ﴾[1].

سرُّ تقديمِ القسَم في سورةِ اللَّيل بخِلافِ سورة الضُّحى:

ظهور النِّعمةِ ووُضوحها ببَعثتِهِ ﷺ

في سورةِ اللَّيل قُدِّمَ القسَمُ باللَّيل على النَّهار؛ بخِلافِ سورةِ الضُّحى؛ فقُدِّمَ القسَمُ بالضُّحى على اللَّيلِ في قوله: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢﴾ [الضحى: 1 - 2]، وذلك لأنَّ سورةَ اللَّيلِ تتكلَّمُ على اختلافِ سعيِ البشَرِ في قوله: ﴿إِنَّ سَعۡيَكُمۡ لَشَتَّىٰ﴾، وهذا السَّعيُ مِنهُ ما يكونُ في الخَيرِ ومِنهُ ما يكونُ في الشَّرِّ، والسّاعونَ إلى الشَّرِّ أكثرُ من السّاعينَ إلى الخيرِ؛ لذلك كان القسَمُ باللَّيلِ مناسِبًا مع حالةِ الشِّركِ والضَّلالِ الَّتي كانت مُنتشِرةً في مكَّة، والوَصفُ المُناسِبُ لهذه الحالةِ الظَّلامُ المقرونُ باللَّيل.

أمّا سورةُ الضُّحى فالخِطابُ فيها للنَّبيِّ ﷺ على سَبيلِ الامتِنانِ والإكرام؛ فقال له رَبُّه: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣﴾ [الضحى: 3] لمّا تكلَّمَ النّاسُ في تأخيرِ الوحي فترةً مِنَ الزَّمَن؛ لذلك كان المُناسِبُ البَدءَ بقسَمِ الضُّحى على اللَّيل؛ لأنَّ الضُّحى يَدعو إلى الأمَلِ والفرَحِ والسُّرور، وظهورِ النِّعمةِ ووُضوحِها ببَعثتِهِ ﷺ.

دلالةُ العطفِ بالواو في ﴿وَٱلنَّهَارِ﴾:

ضوءُ النَّهار مبعثُ الحياةِ ودليلُ قدرةِ الله

الواو الأولى في ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ﴾ للقَسَمِ بالاتِّفاق، وكذا الثّانية وما بعدَها عند البعض، أو أنَّ الثّانية وما بعدَها للعطف؛ لأنَّ إدخالَ القسَمِ على القسَمِ قبلَ تمامِ الأوَّلِ لا يَجوز. وعلى القولِ إنَّ الثّانية للقسَم: فالقسَمُ بالنَّهار إذا تجلَّى؛ لأنَّ النَّهار إذا جاءَ انكشَفَ بضوئِهِ ما كان في الدُّنيا من الظُّلمة، وجاء الوقتُ الَّذي يتحرَّك فيه النّاسُ لمَعاشِهم، وتتحرَّكُ الطَّيرُ من أوكارِها، والهوامُّ من مَكامِنها، فلو

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 378.

كان الدَّهرُ كلُّه ليلًا لتعذَّر المعاشُ، ولو كان كلُّه نهارًا لبطَلت الرّاحةُ، لكنَّ المصلحة كانت في تَعاقُبِهما على ما قالَ سبحانه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ خِلۡفَةً﴾ [الفرقان: 62]، ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ ۝٣٣﴾ [إبراهيم: 33][1]، ولأنَّ النَّهارَ سببُ انكشافِ الأمور، كالموت الذي يُزيلُ عن الرّوحِ علائقَ البدَن، فينجلي لها ما كانت فيه من القبائح، والجهرِ الذي يَشرَحُ النَّفسَ بإزالةِ اللَّبس[2]. وفي كلِّ ذلك دليلٌ على قُدرتِه تعالى وحِكمته[3].

وممّا يُذكرُ في دَلالةِ عَطفِ النَّهارِ بالواوِ على اللَّيل؛ الإشارةُ إلى اشتراكِهما في المَنفعَةِ؛ فالجامِعُ بينهُما كمالُ القُدرَةِ وحُسنُ الصَّنعَة.

دلالةُ تعريفِ النَّهار:

كلُّ نهارٍ مَعْدِنٌ للحِكَمِ والأسرار

تعريفُ النَّهارِ في قولِه ﷻ: ﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ﴾ للجنسِ الشّاملِ لكلِّ أفرادِه؛ فكلُّ نهارٍ فيهِ ما مرَّ من الآياتِ والعِبَرِ والحِكَمِ الَّتي لا يحيطُ بكُنهِها إلّا اللّه تعالى[4]، وذلك لأنَّ الكُرة الأرضيَّةَ بعضُها نهارٌ وبعضُها ليلٌ؛ فتعريفُ النَّهارِ يَصدُقُ وصفًا لِلنَّهارِ في أيِّ جُزءٍ مِنَ الكُرةِ الأرضيَّة.

بلاغةُ إيثارِ لفظِ التَّجلّي على الظُّهور:

ظـهـورُ الـنَّـهـار ظهورٌ بيِّن

عُبِّرَ بالتَّجلّي في قوله تعالى: ﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ﴾ دون الظُّهور؛ لأنَّ التَّجلّيَ هو الانكشافُ الظّاهرُ للشَّيء، فهو أخصُّ من مُطلق الظُّهور، وللإشارةِ إلى أنَّ النَّهار يَظهَر ظهورًا عظيمًا؛ إمّا بزوالِ ظُلمةِ اللَّيل، وإمّا بنورِ الشَّمس[5]، فيُظهِرُ ما كان خفيًّا، ولا يدعُ لمُبصِرٍ

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 181، والمراغي، تفسير المراغي: 30/ 174.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 22/ 87.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 378.
(4) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 20/ 303.
(5) أبو حيان، البحر المحيط: 10/ 492.

شيئًا من لبْس؛ فمَن كان يُريدُ السِّرَّ قصَدَ اللَّيلَ، ومَن أرادَ الجَهرَ قصَدَ النَّهارَ، سواء كان من الأبرار أو من الفُجّار[1]. وفي التَّعبير بالتَّجلّي أيضًا إشارةٌ إلى أنَّ ظُلمة اللَّيل كانت غالبةً لضوءِ النَّهار، وأنَّ النَّهار يَعقُبها[2]. والتَّجلّي استعارةٌ للظُّهور، أو مجازٌ مرسَل؛ لأنَّه لازمٌ للتَّجلّي[3].

نُكتةُ تكرارِ ذِكْرِ التَّجلّي مع سَبْقِ ذِكْرِه:

ذُكر التَّجلّي في قوله هنا: ﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ﴾ بعد ذِكْرِ التَّجلية في قوله: ﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ۝٣﴾ [الشمس: 3] في سورة الشَّمس، وذلك للإشارةِ إلى جمعِ النَّهار بين وصفين متكاملين؛ فهو جليٌّ في نفسِه، مُجَلٍّ لغيرِه.

النَّهارُ جليٌّ في نفسِه ومُجلٍّ لغيره

ومِمّا يُذكَرُ في دَلالةِ ذِكْرِ التَّجلّي مع سَبْقِ ذِكرِه في سورةِ الشَّمس؛ اختِلافُ السّياقِ في كُلٍّ منهُما؛ ففي سورةِ اللَّيلِ جاءَ بَعدَ ذِكرِ زَمَنِ الرّاحةِ والسُّكون؛ ثُمَّ أعقَبَها بذِكْرِ النَّهار؛ لأنَّهُ زَمَنُ سَعْيِ الإنسان؛ بخِلافِ سياقِ سورةِ الشَّمس، فلَم يَرِدْ فيه تَقَدُّمُ اللَّيلِ على النَّهار، بَل كانَ الحَديثُ عنِ الشَّمسِ وأضوائِها.

نُكتةُ تقييدِ القسَم بالنَّهار بـ ﴿إِذَا تَجَلَّىٰ﴾:

تقييدُ القسَمِ بالنَّهار في قوله: ﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ﴾ بحالةِ التَّجلّي، فيهِ إبرازٌ لأعظَمِ حالاتِه في الظُّهور؛ إذْ تَبدأُ الحَياةُ والحَرَكةُ على الأرضِ بَعدَ السُّكونِ والنَّوم، وفي ذلك ما لا يَخفَى مِنَ الامتِنانِ، والحَثِّ على الاعتِبارِ والإيمانِ والشُّكر.

حالةُ تجلّي النَّهارِ لوحةٌ بديعةٌ في الكون

بلاغةُ إسنادِ التَّجلّي إلى النَّهار:

أُسند التَّجلّي إلى النَّهار في قولِ الباري ﷻ: ﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ﴾؛

(1) البقاعي، نظم الدرر: 22/ 87.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 379.
(3) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 20/ 303.

مدحًا لهُ بالاستنارة الَّتي يراها كلُّ أحد، ويُحِسُّ بها حتَّى البُصَراء[1]، ولِما يدلُّ عليه من دقيقِ النِّظامِ في العالم الأرضي.

براعةُ المُقابَلة في الآيتين:

بضدِّها تتبيَّنُ الأشياء

في قولهِ ﷻ: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ۝١ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ﴾ مقابلةٌ لطيفة[2]؛ فاللَّيلُ والنَّهارُ ضِدّان، والغشَيان والتَّجلّي كذلك. ومن محاسنِ هذا التَّقابُل: رؤيةُ صورتَين مُختلفتَين مُتقابلتَين، يُفيدُ كلٌّ منهُما في تقريرِ الأخرى؛ فبضدِّها تتبيَّن الأشياء.

نكتةُ القَسَمِ بـ(خَلَقَ الذَّكَرَ والأُنْثَى):

ذوو الأرواحِ أشرَفُ المخلوقاتِ وأرفَعُها

آثرَ القرآنُ الكريمُ القسَمَ بالذَّكَرِ والأنثى في قوله ﷻ: ﴿وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ﴾ دون بقيَّةِ المخلوقات؛ لتعظيمِ ذوي الأرواحِ الَّذين هم أشرفُ المخلوقات[3]، وفيهما دليلٌ على عَظيم صُنعِ الله تعالى، وباهرِ ابتداعِه وقُدرَتِه؛ فإنَّهُ قد دلَّ تَفريقُهُ بَينَهُما وهُما من أصلٍ واحدٍ على تمامِ قُدرَتِهِ المُستلزِمِ لِشُمولِ علمِهِ وفِعلِهِ بالاختيار[4]، ولأنَّ الإنسانَ على الخُصوصِ هو المَخلوقُ الأرفعُ في عالَمِ المادّيّات، وهو الَّذي يُدرِكُ المُخاطَبونَ أكثرَ دَقائِقِه؛ لِتَكرُّرِهِ على أنفُسِهم؛ ذُكورِهم وإناثِهم، بخِلافِ تكوُّنِ نَسلِ الحَيوان؛ فإنَّ الإنسانَ يُدرِكُ بَعضَ أحوالِه، ولا يُحصي كثيرًا منها[5].

براعةُ الاحتباكِ في الآية:

عظَمَةُ الصّانعِ وإتقانُ المَصنوع

قوله تعالى: ﴿ٱلذَّكَرَ﴾، أي: حِسًّا بآلةِ الرَّجل، ومعنًى بالهمَّة والقوَّة، ﴿وَٱلۡأُنثَىٰٓ﴾، أي: حِسًّا بآلةِ المرأة، ومعنًى بقلّة الهمَّة وضعفِ القوَّة، وما دلّا عليه من عظيم الاصطناع، وباهرِ الاختراعِ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 379.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 15/ 366.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 182.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 22/ 88.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 379 - 380.

والابتداعِ، فإنَّه دلَّ تفريقُه بينهُما وهُما من أصلٍ واحدٍ على تمامِ قدرته المستلزمِ لشُمولِ عِلْمِهِ وفِعلِهِ بالاختيار، فالآيةُ من الاحتباك: ذكرَ أوَّلًا الصَّنعة دلالةً على حَذفِها ثانيًا، وثانيًا الصّانعَ دلالةً على حَذفِهِ أوَّلًا[1].

نُكتةُ إيثارِ (ما) على (من):

عَظَمَةُ الخالقِ ﷻ وصفاته

أوثِرَت (ما) على (مَن) في قوله ﷻ: ﴿وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ﴾؛ لأنَّ (ما) تُستعمَلُ لغير العاقل، ولصفةِ العاقل؛ ففيها دلالةٌ على تعظيمِه ﷻ، والمعنى: والقادرِ العظيمِ القُدرةِ الَّذي قدِرَ على خَلْقِ الذَّكر والأنثى من ماءٍ واحد[2]، فيكونُ ﷻ قد أقسَمَ بنفسه[3]. وفي التَّعبير بـ (ما) أيضًا تنبيهٌ لهم على أنَّهم لمّا أشرَكوا به ﷻ ما لا يَعقل؛ نزَّلوهُ تلك المَنزلةَ وقد أحاطَ بكلِّ شيءٍ، وهو الَّذي خلقَ العُلَماءَ، وهُم لا يُحيطونَ به علمًا، مع ما تُفيده (ما) من التَّعجُّب منهم في ذلك؛ لكونِها صيغة التَّعجُّب[4].

ويحتملُ أن تكون (ما) موصولةً، وعُبِّرَ عن (من) بـ (ما) أي: ومَنْ خَلَقَ الذَّكَرَ والأنثى، وسِرُّ ذلكَ الدَّلالةُ على الوصفيَّةِ وقَصدُ التَّفخيم؛ لأنَّها لِتوَغُّلِها في الإبهامِ أفادَت أنَّ الوَصفَ الَّذي استُعمِلَت هي فيه بالِغٌ إلى أقصى درجاتِ القوَّةِ والكمال؛ بحيثُ كانَ ممّا لا يُكتَنَهُ كُنهُهُ، وأنَّهُ لا سَبيلَ لِلعَقلِ إلى إدراكِهِ بخُصوصِهِ، وإنَّما المُمكنُ هو إدراكُهُ بأمرٍ عامٍّ صادِق[5].

ويحتملُ أن تكون (ما) مصدريَّةً، والمعنى: وخَلْقِه الذَّكرَ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 22/ 88.
(2) الزمخشري، الكشاف: 4/ 762، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 317.
(3) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 20/ 80 - 81.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 22/ 87.
(5) الهرري، حدائق الروح والريحان 32/ 61.

والأنثى[1]. أقسَمَ اللهُ بأثرٍ من آثار قُدرتِهِ، وهو خَلْقُ الزَّوجَين وما يَقتضيهِ من التَّناسل[2].

وبِناءً على ما سَبَق؛ فالقسَمُ إمّا أن يكونَ بذاتِهِ، أو بفعلٍ من أفعالِهِ، وهو خَلْقُ الذَّكرِ والأُنثى، واحتِمالُ المَعْنيَين من باب التَّوسُّعِ في الدَّلالةِ لـ (ما).

سِرُّ التَّعبيرِ بالخَلْقِ دونَ الجَعْلِ:

إبداعُ الذَّكرِ والأُنثى مُتقَن

آثرَ التَّعبير بالخَلْقِ في قوله: ﴿وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ﴾ دونَ الجَعْلِ؛ لِوُجودِ فرْقٍ بَينهُما؛ فأصْلُ الخَلْق: التَّقديرُ المُستقيم، ويُستعمَلُ في إبداعِ الشَّيءِ من غيرِ مِثالٍ سابق. والجَعْلُ لهُ استِعمالاتٌ كثيرة؛ منها تصْييرُ الشَّيءِ على حالةٍ دونَ حالة[3]. وهذا غيرُ مُرادٍ هُنا؛ لذا آثرَ التَّعبيرَ بالخَلْقِ؛ لِما فيه من أنَّهُ تعالى قد أبدَعَ كلَّ ذَكرٍ وأنثى من غيرِ مِثالٍ سابقٍ، مع تقديرٍ مُتقَنٍ مستقيم.

نُكتةُ التَّعبيرِ بالماضي في ﴿خَلَقَ﴾:

خَلْقُ الذَّكرِ والأُنثى واقعٌ متحقِّق

جيءَ بصيغةِ الماضي في قولِ الباري جلَّ ذِكْرُه: ﴿وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ﴾؛ للتَّنبيه على أنَّ خَلْقَ الذَّكرِ والأنثى أمرٌ متحقِّقٌ محسوسٌ، يشاهدُه كلُّ عاقل، ولا يُنكِرُه إلّا أهلُ الكِبْر والعِناد الَّذين طُمِسَتْ بصائرُهم.

دلالة (أل) في ﴿ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ﴾:

كلُّ ذَكرٍ وأُنثى دليلٌ على خالقِهِما العظيم

(أل) في الذَّكر والأنثى في قوله تعالى شأنه: ﴿وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ﴾ للجنسِ الشّامل لكلِّ ذَكرٍ وأنثى، أي: والقادرِ العظيمِ القُدرةِ الَّذي خلقَ صِنفَي الذَّكرِ والأُنثى من الحيوان المتَّصفِ بذلك[4]. وفي ذلك إشارةٌ إلى أنَّه لا يَخرجُ مخلوقٌ من ذي روحٍ عن الذَّكرِ والأنثى[5].

(1) الزمخشري، الكشاف: 4/ 762، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 317.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 379.
(3) زيدان، الفروق اللغوية، ص: 404 - 405.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 15/ 366.
(5) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 20/ 303 - 304.

ويحتملُ أن تكون (أل) للعهد، والمرادُ خُصوصُ خَلْقِ الإنسانِ وتكوُّنِهِ من ذَكرٍ وأنثى، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ﴾ [الحجرات: 13]؛ لأنَّه هو المخلوق الأرفعُ في عالم المادّيّات، وهو الَّذي يُدركُ المخاطَبون أكثرَ دقائقِهِ؛ لتكرُّرِهِ على أنفُسِهم؛ ذُكورِهم وإناثِهم، بخِلافِ تكوُّنِ نسْلِ الحيوان؛ فإنَّ الإنسانَ يُدركُ بعضَ أحوالِه، ولا يُحصي كثيرًا منها، والمعنى: وذلكَ الخَلْقِ العجيبِ من اختلافِ حالَي الذُّكورةِ والأُنوثةِ معَ خُروجِهما من أصلٍ واحدٍ، وتوَقُّفِ التَّناسلِ على تزاوُجِهما[1]، وعلى هذا فالتَّعريفُ للعَهد.

ويحتملُ أن يكون المرادُ بالذَّكَر: آدمَ عليه السلام، وبالأنثى: حوّاءَ رضي اللّه تعالى عنها، وعلى هذا فالتَّعريفُ للعهد[2]، والأولى حَمْلُها على الجِنسِ لِإفادَةِ العُموم، وموافقةً لِسياقِ الآياتِ في السّورة الَّتي تَدُلُّ على العُموم.

غرَضُ تقديم ﴿ٱلذَّكَرَ﴾ على (الأنثى):

الذَّكَرُ أسبَقُ من الأنثى

قُدِّم ﴿ٱلذَّكَرَ﴾ على (الأنثى) في قولِ الحقِّ تقدَّست أسماؤه: ﴿وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ﴾؛ مراعاةً لأصلِ الخِلْقة؛ فآدَمُ أوَّلًا وحَوّاءُ ثانيًا؛ على أنَّ المُرادَ بالذَّكَرِ والأنثى آدَمُ وحَوّاء، وعلى أنَّ المَقْصودَ الجِنسُ لِلذَّكَرِ والأنثى، يَكونُ التَّقديمُ؛ لِأنَّهُ الأقوى مِن حيثُ الخِلْقَة، ولِأنَّ تَأخيرَ (الأنثى) أنسَبُ بالفَواصِل.

سِرُّ تخصيصِ الخَلْقِ بالذَّكرِ والأنثى:

تمـيُّزُهُـما من سائـرِ الخـلْـقِ بـالـعـقـلِ والتَّكليف

تخصيصُ ﴿ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ﴾ بالذِّكر في قوله عزَّ شأنه: ﴿وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ﴾ مَعَ وُجودِ مَخلوقاتٍ كَثيرةٍ؛ تَنبيهًا لِلإنسانِ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 379 - 380.
(2) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 20/ 303 - 304.

على تَفْضيلِهِ وتَكريمِهِ بالعَقْل؛ فلا يَنبغي أن يَدَّعيَ الإلهيَّةَ أو يَتَّخِذَ أصنامًا، أو غَيرَ ذلكَ مِن وُجوهِ الإلحاد[1].

سِرُّ القَسَم بالخَلْقِ هنا بعدَ القسَمِ بالتَّسويةِ في سورةِ الشَّمس:

الـجـمـعُ بين البناءِ الجسَديِّ والبناءِ النفسيِّ

كان القسَمُ في سورةِ الشَّمسِ بتسويةِ النَّفس، أي: خَلْقِ العقلِ والمعرفةِ في الإنسان، فقال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧﴾ [الشمس: 7]، وأمّا القَسَمُ هُنا فبِخَلْقِ جَسَدِ الإنسانِ واختلافِ صِنفَيْهِ - على أنَّ المُرادَ بالذَّكرِ والأنثى مِن الإنسانِ - فيَحصُلُ بمَجموعِ الآيتَيْنِ الكَلامُ عنِ الإنسانِ مِنَ النّاحيةِ الجسديَّةِ، ومن النّاحية العقليَّة والنَّفسيَّة[2]، وفي ذلك ما لا يَخفَى من الامتنان، والحثِّ على الاتِّعاظِ والتَّدبُّر والاعتبار.

بلاغةُ مُلاءَمَةِ جوابِ القسَمِ للمُقسَمِ به:

اخـتـلافُ سعيِ النّاسِ كاختلافِ المقسَم به

التَّلاؤمُ والتَّناسبُ بينَ المُقسَم به والمُقسَم عليه ظاهرٌ جليٌّ؛ فكما اختلفَ اللَّيلُ والنَّهارُ والذَّكَرُ والأنثى في قوله ﷻ: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ۝١ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝٢ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ﴾؛ اختلفَ سعيُ العِبادِ في قوله: ﴿إِنَّ سَعۡيَكُمۡ لَشَتَّىٰ﴾ فسعيُ النّاسِ منه خيرٌ، ومنه شرٌّ؛ وهُما يُماثلان النّورَ والظُّلمة، وإنَّ سعيَ النّاسِ يَنبَثِقُ عن نتائج منها النّافعُ، ومنها الضّارُّ، كما يُنتجُ الذَّكرُ والأنثى ذرّيَّةً صالحةً وغيرَ صالحةٍ[3]. وأيضًا: لمّا كان القسَمُ بهذه الأشياءِ المُتضادَّة؛ كان القسَمُ عليه أيضًا متضادًّا؛ ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ سَعۡيَكُمۡ لَشَتَّىٰ﴾، أي: أعمالُ العِباد الَّتي اكتسَبوها مُتضادَّةٌ أيضًا ومُتخالفة؛ فمِن فاعلٍ خيرًا، ومن فاعلٍ شرًّا[4]؛ فمَصيرُ كلٍّ منهُما مُختلفٌ عن الآخر.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 22/ 87.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 380.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 378.
(4) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 8/ 417.

سِرُّ عدَمِ التَّصريحِ بلفظِ الزَّوجينِ في الآية:

تفصيلٌ للقُدرةِ الإلهيَّةِ في الجَمعِ بين الأضدادِ؛ من الضَّحكِ والبكاءِ، والموتِ والحياةِ، والغِنى والفقرِ.

النّاظرُ في هذه الآية يجد حديثًا عن خَلْقِ الذَّكرِ والأنثى دون ذِكرٍ لكلمةِ الزَّوجين كما وردَت في سورةِ النَّجم في قوله: ﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوۡجَيۡنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰ ٤٥﴾ [النجم: 45]، وكما في سورةِ القيامة في قوله: ﴿فَجَعَلَ مِنۡهُ ٱلزَّوۡجَيۡنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ ٣٩﴾ [القيامة: 39].

ويَظهَرُ سِرُّ عَدَمِ التَّعبيرِ بكَلِمةِ الزَّوجَيْنِ في سورةِ اللَّيلِ كما ورَدَت في سورَتَي النَّجمِ والقيامَةِ مِن خِلالِ السّياق؛ فسورةُ النَّجمِ والقيامَة المَبنيُّ فيهما على التَّفصيل؛ إذْ ذُكِرَ في سورةِ القيامَةِ تَفصيلُ مَراحِلِ خَلْقِ الإنسانِ مِن قَولِهِ: ﴿أَلَمۡ يَكُ نُطۡفَةٗ مِّن مَّنِيّٖ يُمۡنَىٰ ٣٧﴾ [القيامة: 37]، وفي سورة النَّجمِ تفصيلٌ للقُدرةِ الإلهيَّةِ في الجَمعِ بين الأضدادِ؛ من الضَّحكِ والبكاءِ، والموتِ والحياةِ، والغِنى والفقرِ.

أمّا سورةُ اللَّيلِ فمَبناها على الإجمال؛ لأنَّ اللّه أقسَمَ بلا تفصيلٍ، والمُقسَمُ عليهِ بقَولِهِ: ﴿إِنَّ سَعۡيَكُمۡ لَشَتَّىٰ﴾ لا يَتَناسَبُ مع الزَّوجيَّة؛ لأنَّ كلمةَ شَتَّى تَعني التَّباعُدَ، والزَّوجيَّةَ تَعني التَّقارُبَ والاقترانَ؛ لذلك لم تُذكرْ كلمةُ الزَّوجيَّة[1].

دلالةُ تَوالي المؤكِّداتِ في ﴿إِنَّ سَعۡيَكُمۡ لَشَتَّىٰ﴾:

اختلافُ سعي النّاسِ حقيقةٌ ثابتة

توالت المُؤكِّداتُ بـ ﴿إِنَّ﴾ واللّام واسميَّةِ الجملة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ سَعۡيَكُمۡ لَشَتَّىٰ﴾؛ لأنَّه لا يكاد يُصدَّقُ اختلافُ وجوهِ السَّعي مع اتِّحادِ المراد[2]، فبيَّنت الآيةُ أنَّ ذلك حقيقةٌ ثابتةٌ، لا ينبغي أن يُشَكَّ فيها.

(1) فاضل السامرائي، لمسات بيانية في نصوص من التنزيل: ص 366.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 22/ 88.

سِرُّ التَّعبير بالسَّعي دون العمل:

وجـوبُ بَـذْلِ الإنـسـانِ غايةَ جُهدِهِ في أعمالِهِ

آثرَ القرآنُ الكريم التَّعبيرَ بالسَّعي في قوله: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ﴾ دونَ العمَلِ لوجودِ فرقٍ بينهما؛ فالسَّعيُ يُطلَقُ على المشي السَّريع، وهو دون العَدْوِ، ويُستعملُ للجِدِّ في الأمر، خيرًا كان أو شرًّا[1]؛ بخلافِ العمل؛ فيُطلق على كلِّ فعلٍ يكونُ من الحيوان بقصدٍ[2]. وعُبِّرَ بالسَّعي ليبذلَ كلُّ إنسانٍ في عمَلِه غايةَ جُهدِه[3]، فالسَّعيُ مُستعارٌ هنا للعمَلِ والكدِّ[4].

سِرُّ إفرادِ ﴿سَعْيَكُمْ﴾:

السَّعيُ مفردٌ لفظًا جمعٌ معنًى بدلالة السّياق

أُفرِدَ قولُهُ تعالى: ﴿سَعْيَكُمْ﴾ مع تعدُّدِ المَساعي بتعدُّد النّاس؛ لأنَّ المَصْدَرَ المُضافَ يُفيدُ العُمومَ، فيَكونُ جَمعًا مَعنًى، ولِذا أُخبِرَ عَنهُ بـ (شتَّى)، وهو جَمع. وأيضًا: هو مُفرَدُ مَصْدَرٍ مُؤنَّثٍ، كـ (ذِكرى)، و(بُشرى)، فهوَ بتَقْدير مُضافٍ، أو مُؤوَّلٍ، أو بجَعْلِهِ عَينَ الافتِراقِ مُبالَغَةً.[5].

بلاغةُ الإضافة في ﴿سَعْيَكُمْ﴾:

الإنسانُ مسؤولٌ عن عملِهِ لا عَن عملِ غيرِه

الإضافةُ في قولِهِ ﷻ: ﴿سَعْيَكُمْ﴾ لاميَّة، والمعنى: سَعيًا لكم، وفيها تنبيهٌ على أنَّ سَعيَ كلِّ إنسانٍ مختلفٌ عن سَعي غيرِه، ويتفرَّع عن ذلك أنَّ سلوكَه طريقَ الخير أو طريقَ الشَّر متعلِّقٌ بعملِه هو لا بعملِ غيرِه؛ وفي هذا دليلٌ على أنَّ المسؤوليَّةَ فرديَّةٌ.

دلالةُ الخطاب في ﴿سَعْيَكُمْ﴾:

وجـوبُ تيقُّظِ الإنسانِ لمصيره

الخطاب في قوله تعالى: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ﴾ لجميع النّاس من مؤمنٍ وكافر[6]، والمعنى: سَعْيُكم أيُّها المكلَّفون مختلفٌ ومتفاوِتٌ

(1) الراغب، المفردات: (سعي).
(2) الراغب، المفردات: (عمل).
(3) البقاعي، نظم الدرر: 22/ 88.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 380.
(5) الآلوسي، روح المعاني: 15/ 366، والقاسمي، محاسن التأويل: 9/ 485.
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 380.

بحسَبِ النَّشاطِ والكَسَلِ والعَجْزِ والقوَّة، والإخلاصِ وعدَمِه، وعلى هذا؛ ففائدةُ الخطابِ مَزيدُ الإيقاظِ والتَّنبيهِ لمضمونِ الكلام، والحثُّ على استماعِه، والتَّيقُّظِ لِما بعدَه من التَّفصيل.

سِرُّ التَّعبير بقوله: ﴿لَشَتَّىٰ﴾ دون (لمختلف) ونحوه:

جـزاءُ المـؤمـنِ والكافرِ مُتباعد؛ فمُثابٌ بالجنَّة، ومعاقَبٌ بالنّار

آثرَ التَّعبيرَ بـ﴿لَشَتَّىٰ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ﴾ دون (مختلف)؛ لدلالتِه على التَّفرُّقِ الشَّديد؛ فهو جَمْعُ شَتيت، مثلُ مريضٍ ومَرْضى، وإنَّما قيل لِلمُختلف: شتَّى؛ لِتَباعُدِ ما بين بعضِه وبعضِه، أي: إنَّ عملَكم لَمُتباعِدٌ بعضُه من بعض؛ لأنَّ بعضَه ضَلالة، وبعضَه هُدًى، أي: فمِنكم مؤمنٌ وبَرٌّ، وكافرٌ وفاجِر، ومُطيعٌ وعاصٍ.

وممّا يُذكر في سرِّ التَّعبير بـ﴿لَشَتَّىٰ﴾، دَلالتُهُ على بُعدِ الجزأينِ لِلمؤمنِ والكافر؛ فمِنكم مُثابٌ بالجنَّة، ومِنكم مُعاقَبٌ بالنّار. أو لِمُختلفُ الأخلاق؛ فمِنكم راحِمٌ وقاسٍ، وحليمٌ وطائشٌ، وجوادٌ وبخيلٌ، وشِبهُ ذلك.[1].

بلاغةُ الاستعارةِ أو الكنايةِ في ﴿لَشَتَّىٰ﴾:

أعـمـالُ الـنّـاسِ مختلفةٌ متفاوتة

(شتَّى) في قوله ﷻ: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ﴾ مشتقٌّ من الشَّتِّ، وهو التَّفرُّق الشَّديد، يقال: شتَّ جَمعُهُم، إذا تفرَّقوا، وأُريدَ به هنا التَّنوُّعُ والاختلافُ في الأحوال، وهو استعارةٌ أو كنايةٌ عن الأعمال المُتخالفة؛ لأنَّ التَّفرُّق يلزمُه الاختلافُ[2].

بلاغةُ الإجمال في ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ﴾:

الإنسانُ العاقلُ ينظرُ في عاقبةِ أمرِه

في قوله ﷻ: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ﴾ إجمالٌ يُفيد التَّشويقَ إلى تفصيله بقوله: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ﴾ الآية؛ ليتمكَّنَ تفصيلُهُ في الذِّهن[3]، فمَصيرُ الإنسانِ مرتبطٌ بإدراكِ هذا التَّفصيل؛ ليسلكَ بعد ذلكَ سبيلَ النَّجاةِ أو سبيلَ الهلاك.

(1) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 20/ 82.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 380.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 379.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد السابع والستون،
سورة الأعْلى من الآية 06 إلى سورة العَلَق
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد السابع والستون، سورة الأعْلى من الآية 06 إلى سورة العَلَق
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 67 ، 810 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-646-69-3
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 67 : المجلد السابع والستون، سورة الأعْلى من الآية 06 إلى سورة العَلَق.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-646-69-3
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-4934554 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
"تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام"
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي "النجار"